مجلة بادر
المُحكّمة لعلم النفس الإسلامي

أثر المحددات النفسية والاجتماعية المعتبرة عند الحجوي في التمييز بين تعليم البنات والبنين -بحث في أهداف التعليم وبرامجه ومحله-

ذ. حمزة شرعي[1]

Hamza.charai5@gmail.com

الملخص:

يعد الحجوي أول مدافع عن حق المرأة في التعليم، وذلك في فترة منغلقة كانت فيها النساء محرومات من حقهن في التمدرس، وقد تضمنت كتاباته في هذا السياق إشارات نفسية مهمة لا زال علماء النفس التربوي يؤكدونها بإلحاح، وتتعلق بطبيعة المتعلم والمتعلمة، وإمكاناتهما وحاجاتهما المختلفة. وقد جاءت تلك الإشارات ضمن خصوصيات النظام التعليمي للبنات التي نبه إليها، والتي تعود إلى ثلاثة مستويات رئيسة هي: أهداف التعليم، وبرامجه، ومحله. وقد توسلت بالمنهجين الوصفي والتحليلي لمقاربة البحث من كل جوانبه، بتحديد خصوصيات تعليم البنات عند الحجوي، ومحاولة البحث في خلفياتها النفسية، ومحدداتها الاجتماعية، بالإضافة إلى العمل على تحليل جملة من اختياراته التربوية في هذا الجانب. وقد توصلت إلى جملة من النتائج، لعل من أهمها: أن التعليم في مدارس مختلطة يضيع على البنات فرص كبيرة للتحصيل مقارنة مع الذكور نظرا لاختلاف متغير الجنس وما يستتبع ذلك من اختلاف على مستويات مختلفة: نفسية وعقلية وسلوكية. كما أن التعليم المجدي للبنات -بالنسبة للحجوي- هو الذي يسهم بمخرجات تفيد في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. وعلى ضوء تلك النتائج أوصى الباحث الجهات المكلفة بإعداد المناهج التعليمية بأن تأخذ بعين الاعتبار الوظائف الاجتماعية للمرأة أثناء التخطيط للأهداف، دون إغفال ما يتناسب مع طبيعتها الأنثوية، إلى جانب الوعي أثناء تنزيل المناهج بمقومات البنات البيولوجية وخصائصهن النفسية.

الكلمات المفتاحية: الحجوي الثعالبي - تعليم البنات - الأم - الخصائص النفسية - التعليم المختلط

---

(1)- أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين–جهة الشرق-المغرب
- عضو فريق التربية على القيم بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين – جهة الشرق- المغرب

The impact of psychological and social determinants considered by Al-Hajjawi in distinguishing between girls' and boys' education
-Research on the objectives of education, its programs and its place-

Hamza Charai[2]

Hamza.charai5@gmail.com

Abstract:

Al-Hajwi is considered the first defender of women's right to education, during a closed period in which women were deprived of their right to schooling. His writings in this context included important psychological references that educational psychologists still insist on, and related to the nature of the male and female learner, their potential and their different needs. These references came within the specificities of the girls' education system that he drew attention to, which go back to three main levels: the objectives of education, its programs, and its location. I used the descriptive and analytical methods to approach the research from all its aspects, by identifying the specificities of girls' education according to Al-Hajwi, and trying to research its psychological backgrounds and social determinants, in addition to working on analyzing a number of his educational choices in this regard. I reached a number of results, perhaps the most important of which is: that education in mixed schools wastes great opportunities for girls to achieve compared to boys due to the difference in the gender variable and the resulting difference at different levels: psychological, mental and behavioral. According to Al-Hajwi, effective education for girls is one that contributes to outcomes that improve the economic and social conditions of society. In light of these results, the researcher

[2] Member of the Research Team in Values Education: Regional Center for Education and Training Professions - Oriental Region - Morocco

recommended that the authorities responsible for preparing educational curricula take into account the social functions of women when planning goals, without neglecting what is consistent with their feminine nature, in addition to awareness during the implementation of curricula of the biological components and psychological characteristics of girls.

Keywords: AlHajwi Al-Thaalibi - Girls education - Mother - Psychological characteristics - Mixed education

مقدمة:

شكلت قضية تعليم المرأة عنوانا بارزا لفترة منغلقة وسط مجتمع محافظ كانت فيه النساء محرومات من حقّهنّ في التمدرس حضريات وبدويات، لكن الحجوي لم يبال بالوسط المغربي الذي كان وقتئذ ضد القضية، ليتفاعل معها برؤية متنوّرة وبروح مقاصدية صرفة قوبلتا بمعارضة وممانعة شديدتين، مع أنه لا دليل على منع البنات من التعليم وإنما هو التقليد الاجتماعي والعرف الدارج لا أكثر. وبالرغم من أن أفكاره الإصلاحية قد عرفت تعثرا في بدايتها، إلا أنها كانت مقدمات وممهدات ضرورية للجو التنويري الذي سيسود بعدها..

وفي دفاعه عن المرأة وعن حقها في التعليم، تناول جملة من الخصوصيات التي ينبغي مراعاتها في النظام التعليمي الخاص بها، وإلا سيؤول تعليمها -في حدود زمانه على الأقل- إلى الإخفاق والفشل، لأنه لن يكون مبنيا على فهم صحيح لطبيعتها الأنثوية، ومعرفة تامة بخصائصها النفسية ووظائفها الاجتماعية.

لقد تضمنت كتابات الإمام الحجوي التربوية مجموعة من الإشارات النفسية الدقيقة التي تقوم عليها نظريات التعلم الحديثة، وقد عكسناها في مرايا علم النفس التربوي فوجدناها على قدر كبير من التطابق والانسجام؛ فقد أكد على ضرورة الاهتمام بطبيعة المتعلمة، والأخذ بعين الاعتبار الأهداف المرجوة من تعليمها، كما وضع لها برنامجها تعليميا متكاملا يسهم في تحقيق النمو التربوي الشامل لمختلف جوانب التعلم لديها: الوجدانية والمهارية والمعرفية والسلوكية...

ونسعى في هذه الورقة البحثية إلى الوقوف على الخلفيات النفسية التي جعلت الحجوي ينبه إلى خصوصيات تربوية تتعلق بتعليم البنات، مع تأكيده في أكثر من موضع أنهن يشتركن مع الذكور في العديد من الأمور، إلا أن الخصائص النفسية للبنات، ومقوماتهن البيولوجية، إلى جانب وظائفهن الاجتماعية في زمانه، كلها عوامل جعلته لا يتردد في تبني اختيارات تربوية تقوم على التمييز الإيجابي بين البنين والبنات في التعليم، وقد ظهرت لنا تلك الاختيارات على قدر عال من التقدم والحداثة.

وتُحدد إشكالية البحث في السؤال الرئيس الآتي: **ما الخلفيات النفسية والمحددات الاجتماعية المتضمنة في اختيارات الحجوي التربوية، والمفضية إلى التمييز الإيجابي في التعليم بين البنات والبنين في حدود بيئته وزمانه؟**

وللإجابة عن هاته الإشكالية وأسئلتها المتفرعة عنها، وضعت منهجية محكمة واضحة المعالم قصد الإحاطة بموضوع البحث من كل جوانبه، بتقسيمه إلى مبحثين ومقدمة وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

- **المبحث الأول: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي وأسباب الإصلاح التعليمي عنده**

المطلب الأول: نبذة موجزة عن محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

المطلب الثاني: أسباب الإصلاح التعليمي عند الحجوي الثعالبي

- **المبحث الأول: مجالات اختلاف التعليم بين البنين والبنات عند الحجوي الثعالبي**

المطلب الأول: أهداف التعليم

المطلب الثاني: برامج التعليم

المطلب الثالث: محل التعليم

خاتمة

ولقد توسلت بالمنهج التاريخي وذلك لمناسبته تتبّع الإصلاح التربوي عند الحجوي الثعالبي، في فترة تاريخية مغلقة، كانت فيها الأوساط الشعبية -نخبة وعامة- ضد تعليم المرأة. ثم بالمنهج الوصفي الموصول بالاستقراء والتحليل، للتطرّق خصوصيات تعليم البنات المسلمات، والمعطيات النفسية المعتبرة التي في ضوئها نبه الحجوي إلى ضرورة إعطاء المرأة حقها في التعليم، لكن بكيفية مختلفة عن الذكور تعكس حقيقة أن الحجوي قد أتيح له المجال للإفادة من الدراسات والبحوث التربوية والنفسية التي شملت مختلف جوانب العملية التعليمية التعلمية، وهذا الأمر يؤكده قوله للسلطان: «إن الدروس التي سألقيها بين أيديكم هي خلاصة ما اختاره الفلاسفة العِظام، والعلماء الأعلام الذين عالجوا تربية الأمم ومهروا في علم النفس ودققوا تجارب الأمم»[3]. والله المسؤول بالإتمام وعليه التكلان.

المبحث الأول: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي وأسباب الإصلاح التعليمي عنده

(3)- أساس التهذيب الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: الطالب محمد شرنان، بحث لنيل شهادة الماستر في الدراسات الإسلامية، ماستر الاختلاف في العلوم الشرعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، الموسم الجامعي: 2019/2018م، ص: 2.

إن الحديث عن الشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي هو حديث عن عَلم من أعلام الإسلام الذين خلّد تاريخ الفكر أسماءهم بمداد العلم والمعرفة، والتجديد والإضافة، وعفّة القلم، وتحرّي الحق والجرأة في الصدع به، دون تجاوز لحدود النطاق العلمي النّزيه. فهو وإن أتى في زمن المتأخّرين، إلا أنه من طينة المتقدّمين الأفاضل الذين شُهد لهم بصلاح الظاهر في الاجتهاد واستفراغ الوسع، وبصلاح الباطن في حسن النيّة والقصد، فتركوا لنا وللبشرية مكتبة زاخرة، وكنوزا من العلم باهرة، لا يوجد مثلها ولا نصفها ولا معشار عُشرها عند أمّة من الأمم.

والحجوي -رحمه الله- من شيوخ التجديد في عصره، ومن سفراء الإصلاح بمنار القرويين بامتياز، ولا يرتاب في كونه قطب الإصلاح الاجتماعي والتحديث التعليمي؛ حيث أنفق فيهما أخصب سِني عمره الذي جاوز الثمانين، إذ حمل لواء الحركة الإصلاحية في المغرب منذ أوائل القرن العشرين، وذلك من خلال تصوّرات نظرية للإصلاح ضمّنها في كتبه ورسائله، ومشاركة حيوية في الحياة العامّة، كان لها أثرها البالغ في تنامي الوعي بأسباب التأخّر، وكذلك بمسالك النهوض بالأداء الاستخلافي الحضاري، للانطلاق لحاقا بركب التطوّر والتقدّم.

لقد أخذت مسألة الإصلاح عموما، وإصلاح التعليم على وجه الخصوص حيّزا كبيرا من اهتمام شيخنا الحجوي، لاقتناعه أن الحالة التي انتهت إليها الأمة لا خلاص منها إلا بالتعليم، ومن هنا فهو يَعتبر إصلاحه ضرورة حضارية لنهضة البلاد وخروجها من حال الكساد والفساد، ولذلك انتقد تلك الأحوال البئيسة التي كان عليها جامع القرويين؛ فأسلاك التدريس لم تكن محددة بفترة زمنيّة لكل طور من أطوار التعليم بالجامع، على غرار البرامج التعليمية وآليات الانتقال من سنة إلى أخرى، وإنما كانت تقرر في الغالب وفق المصالح الشخصية للشيوخ والطلبة، فدعا إلى ضرورة إخضاع أسلاك التعليم وبرامجه إلى النّظام، بتقدير فترة الدراسة بزمن معيّن، بدل تحديدها بمقررات ومتون، وتقسيمها تقسيما عصريا كما في المؤسسات التعليمية العصرية، مع مراعاة التدرّج في المعارف والأفكار، للحد من هدر الأوقات في رحاب الجامع بلا فائدة.

والحقيقة أن عناصر من جامع القرويين لم يقبلوا بإصلاح جذري للتعليم -خاصة قوانين المجلس التحسيني التي وضعها الحجوي- لأنهم يرون في كل توجّه جديد خروجا عن الدين ومزاحمة للعلوم الإسلامية، فظلوا يعارضون كلّ نفس تجديديّ يروم تنظيم الجهاز التعليمي، لا لشيء إلا تقديسا لتراتيب أسلافهم، واعتقادهم أن ما جاء به الأقدمون هو أعز ما يطلب، وأنجع ما يتبع.

المطلب الأول: نبذة موجزة عن محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

توخى مترجَمنا محمد بن الحسن بن العربي بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي (1376/1291هـ= 1956/1874م)[4] إظهار حقيقةٍ من حياته حينما تنبّه إلى أن الأفكار مُعرِضة عن الاهتمام بترجمة الرجال، فترجم النبيه لنفسه اقتداء -على حد قوله- بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وخشية أن يطوى ذكره لقلّة الاعتناء وعدم التنبيه، يقول: «إني لأشعر بعبء ذلك على كاهلي، ولكنني لا أجد منه بدًّا، فلينتبه إخواننا إلى الاعتناء بتراجم الرجال وإظهارهم مظاهرهم، فالأمة برجالها، والسهام بنصالها، وليترجم الناس لأنفسهم بأنفسهم»[5]. فكم من عالم فاضل صار اسمه بالإهمال مهجورا، كأن لم يكن شيئا مذكورا.

فقد ولد الحجوي بفاس يوم الجمعة في الرابع من رمضان عام 1291هـ الموافق لـ 1874م. وفي بيت عظيم نسبا وشرفا، -في كنف والده ووالدته وجدته للأب- نشأ مترجَمنا نشأته المميّزة على أكمل الصفات الدينية، وأرفع المناهج التربوية، وخير القيم والمبادئ الأخلاقية التي توافرت جميعها في هذه البيئة الأصيلة الراقية العلمية. وقد أشار في ترجمته إلى أن شخصية الفرد إنما هي متوقفة على مرحلة الطفولة، يقول: «هذه هي الحلقة التي تضيع بإهمالها أهم أطوار حياة الرجال (...) لأن حياة الإنسان كلها إنما هي نتيجة ذلك الطور القصير؛ طور الطفولية، ومرآة ينطبع فيه كل حين أثر تربيته الأولى والمدرسة الأولى»[6].

أما مساره العلمي؛ فقد درس على يد والده العقائد السنية، والفقه والتاريخ، والسير والشمائل، كما تلقى القرآن على يد القارئ المتقن والفقيه البارع محمد بن السودي حفيد الشيخ التاودي، ثم على الفقيه

---

(4) يُنتبه في فسحة العمر هاته التي مُكّن منها الحجوي إلى أنه قد عاصر حقبة عصيبة غَدَت فيها الأقطار العربية مستعمرات تابعة للقوى الاستعمارية، كما كان شاهدا على مرحلة مهمة وحرجة من تاريخ المغرب (فترة ما قبل الحماية، ثم معاهدة الحماية، فالاستقلال)، أفرزت أحداثا سياسية فارقة، مثلت منعطفا حاسما في التاريخ المغربي، فكانت له مواقفه البارزة من كل ما يحدث، وكانت له بصماته الخاصة فيها. ثم إن احتكاك المغرب بالدول الاستعمارية والأوروبية التي دعت إليه تطورات الأحداث في القرن العشرين، لم يكن لينفع معه الخطاب الإصلاحي التقليدي، الأمر الذي أحدث يقظة عند الحجوي ألحّت عليه ببذل الجهد واستفراغ الوسع، لفهم العقلية الأوروبية، بالانفتاح على منجزاتها، واكتشاف الأسس التي تقوم عليها، والقيم التي تحتكم إليها، حتى إذا نطق، فلا ينطق عن تطلُّع ثقافيّ، ولا عن رواية بلغته، لكن عن خبرة يراكمها من قرب، من واقع التجربة والمكابدة الشخصية.

(5) **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1428هـ - 2007م، المجلد الأول (ج: 1و2)، ص: 9./ كما أن كتبا أخرى قد خَصصت ترجمة وافية للإمام محمد بن الحسن الحجوي، ككتاب تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر وآثارهم الفقهية، لعبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م، ص: 137، وكتاب الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري، لإبراهيم الوافي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م، ص: 206، وكتاب إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث والرابع عشر، موسوعة أعلام المغرب، لعبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م، ج:9، ص: 3320. وغيرهما مما كُتب في التعريف بمترجَمنا.

(6) الفكر السامي، م.س، ج:1، ص: 12. مع تصرف طفيف لم يخل بالمضمون.

الزاهد محمد بن الفقيه الورياجلي المقرئ. وفي عام 1307هـ، دخل جامع القرويين لاستكمال تعليمه، فأخذ عن شيوخ كبار. وفي عام 1316هـ وبعد تسعة أعوام من التحصيل، استطاع أن يحجز مقعدا إلى جانب العلماء المدرّسين، فشرع في إلقاء الدروس في رحاب هذا المعهد الشامخ العتيق ولمّا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين.

ثم ولج معترك الحياة العامة بمزاولة التجارة ابتداء من عام 1317هـ «في غير أوقات الدروس تدريبا»[7]، ثم مجال الوظائف المخزنية الحكومية ابتداء من السنة الموالية في عام 1318هـ، حيث ألحقه السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن بديوانه، رشحه لذلك نبوغه المبكر، وعيّن عام 1320هـ أمينا على ديوانة وجدة، وفي هاته السنة قبل سفره إلى وظيفه الجديد تزوّج. ثم صار عام 1321هـ مفتشا عاما للجيش ونائبا على وزارتي المالية والحربية في أمور الجند والعتاد، فنائبا عن الملك في الحدود المغربية الجزائرية. إلا أن أمانته وجديته وملَكته النقدية كانت وراء عدم تكيفه واندماجه في دواليب (المخزن)، وتعبيرا عن استيائه قدّم استقالته من مهامه عام 1323هـ بعد أن أدّى المهام الموكلة إليه خير أداء.

وابتداء من عام 1330هـ سمي نائب الصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف، وهو أول مغربي يتولّى هذا المنصب، ثم استعفي بعدما باشر تنظيم المجلس التحسيني لإصلاح التعليم بالقرويين، فأسقط هذا الوظيف من الوظائف المخزنية مدّة. ثم نصبه السلطان المولى يوسف بعد ذلك مستشارا للحكومة المغربية، اعترافا له بولائه ونباهته وكفاءته السياسية والإدارية. ثم تولّى بعد ذلك مناصب على جانب كبير من الحساسية ومنها تعيينه وزيرا للعدل في حكومة السلطان المغفور له محمد الخامس عام 1363هـ الموافق لـ 1944م.

وفي جانب آخر من حياته العلمية أقول، -ولا أكون مبالغا في قولي إن قلت- بأن المغرب لم يشهد في عهده عالما مؤلفا أوفر منه إنتاجا، وأغزر منه نفعا وفائدة لأمّته ومجتمعه. فلقد تنوعت تواليفه العلمية الغزيرة[8] التي لا يزال أغلبها مخطوطا، بحيث أسهمت في إثراء المكتبة الإسلامية بما دمج من بحوث ودراسات ومحاضرات علمية، وتنقيحات أدبية، وتأصيل شرعي، ورؤى وتوجهات إصلاحية اجتماعية وتربوية، أخذت طابع التجديد بأسلوب رائع معتبر، انعقد على فرادتها وتميّزها الإجماع.

---

(7) نفسه، ص: 14- 15.

(8) ليست كتابات الحجوي -طُرًا- كتبا مطولة مسترسلة، بل جلّها مقالات وتقاييد ومذكرات ومحاضرات ألقاها في عدة مناسبات داخل المملكة المغربية وخارجها في عدة أقطار، أو فتاوى لأسئلة فقهية كانت ترد عليه من مختلف الأمصار، وقد تخطّت مؤلفاته أصداء المغرب فتجاوزت الآفاق، بمادتها الضاربة في الأعماق، بما اتسمت بالتجديد والتفتح. وقد ذكر الحجوي في فهرسته المسماة "مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى"، تسعة وتسعين مؤلَّفا خلّفه، أغلبها مخطوط.

بعد كفاح طويل، وحياة علمية وسياسية وتجارية حافلة بالأحداث الجسام، توفي الحجوي يوم الأحد 3 ربيع الأول عام 1376هـ الموافق لـ 7 أكتوبر 1956م، في أحد مستشفيات العاصمة الرباط، عن سن يناهز خمسة وثمانين ربيعا. «ولم يحضر جنازته أحد بعدما امتنع الحزّابون من القراءة عليه»[9].

المطلب الثاني: أسباب الإصلاح التعليمي عند الحجوي الثعالبي

يعدّ الحجوي الثعالبي من أبرز أقطاب النخبة الإصلاحية بالمغرب التي اشتغلت بالإصلاح التعليمي مدخلا لإنهاض الشعب المغربي والسير به قدما، وتوفير مقومات الالتحاق بركب الحضارة، ومجاراة الرقي العلمي الذي تحقّق للأمم المتقدّمة، وفي هذا الشأن يقول: «لا سبيل لأن نصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، وتعميم التعليم الابتدائي حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون باللسان العربي الفصيح، بحيث يعرفون مطالعة الكتب البسيطة السهلة يستفيدون منها دينهم ودنياهم، ومطالعة الجرائد، وأخبار ما يقع في العالم. ليستوي الناس في إدراك ما لهم وما عليهم، ويتساوى السوقي والعالم، والوزير والصانع في معرفة ما هو الضار للهيئة الاجتماعية، وما هو نافع لها ليحسّوا جميعا بالألم، ويعرفوا موضعه، ويتطلبوا أدواءه، فينهضوا بأجمعهم لنفعهم ودفع ضرهم ويفهموا ما يلقى إليهم من الخطاب، وما هي عليه حياة غيرهم من الأمم ليجاروها في معترك الحياة»[10].

لقد كان الحجوي الثعالبي من بين أوائل الدعاة للنهوض بالعملية التعليمية في سائر أطوارها ومستوياتها؛ حيث تناول موضوع ترقية التعليم في العديد من كتاباته ومسامراته ومحاضراته داخل المغرب وخارجه، ولم يكتف بإلقاء الخطب لإبراز أهمية التعليم في النهوض بالبلاد والإجابة عن الإشكالات المطروحة، بل وجّه في هذا الشأن كذلك توجيهات ونصائح للسلطان، فخاطبه قائلا: «إن أنفس هدية أقدّمها لقرّة عين مملكتنا المغربية العزيزة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وناصر الملّة والدّين، وحامي القرآن المبين، نصائح ثمينة في أصول التربية الإسلامية التي هي مبنى هيكل التهذيب عند المسلمين (...) إن التربية الراقية هي التي تُنتج نهضة عامة صحيحة، والأمم بأخلاقها لا بأعلاقها ولا بأعرافها، فكل شيء في الأمّة ثانوي بالنسبة للتربية»[11].

---

(9) إتحاف المطالع، موسوعة أعلام المغرب، م.س، ج: 9، ص: 3320.

(10)- الفكر السامي، م.س، مج: 2، ص: 455.

(11)- أساس التهذيب الإسلامي، م.س، ص: 2.

وقد أورد في مقدمة محاضرته "إصلاح التعليم العربي" ما ينصّ على عقده العزم على إصلاح التعليم العربي والإسلامي، يقول: «يجب البداءة في نهضة الأمّة المغربية بإصلاح التعليم العربي والرهان على ذلك؛ فمن الواجب على أعلام الأمّة وقادتها أن ينبّهوا أفكارها إلى احتياجها للرقي والنهوض، وهذا علينا من آكد الفروض...»[12]. كما صرّح في "الفكر السامي" بأن إصلاح التعليم بالقرويين كان أول ما استرعى اهتمامه أثناء توظيفه نائب الصدارة العظمى في المعارف والتعليم، يقول: «فكان أمر القرويين أول ما أهمني قلبا وقالبا...»[13].

وبحكم معرفة الحجوي بالميدان التعليمي معرفة الخبير المتمرّس من خلال ما راكمه من تجارب بصفته طالبا، ثم مدرِّسا، فمسؤولا بارزا في الميدان؛ فقد بلور مشروعه التعليمي، وبرّز ملامحه الكبرى فيما نثره من كتب وعرضه من محاضرات، كما بسط الأسباب العامة التي دفعته إلى تصور مشروع جديد للإصلاح التربوي والتعليمي، وتفاعل معها بروح مقاصدية خالصة، وسأحاول الوقوف عليها بإثارة سؤال جوهري يتعلّق بالمقاصد والغايات التي كان يتوخّاها الحجوي من إصلاح التعليم، هذا السؤال الذي يمكن الإجابة عنه انطلاقا من مداخل خمسة:

- **مدخل نهضوي حضاري**؛ بحيث انطلق الحجوي في مشروعه التعليمي الطموح من سؤال محوري، لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟ فكان جوابه أن سبب تقدّم الغرب يرجع إلى العلم والتعليم، وسبب تأخّر المجتمعات العربية والإسلامية يرجع إلى غلبة الجهل والأمية على نسائها ورجالها، يقول: «غير خفي أن علّة العلل في تأخّر الأمّة العربية أو الأمم الإسلامية هو داء الأمية، وكل يعلم مضارها العظمى، وأثرها السيء فينا (...) لذلك أرى أن أول داء نبادر إلى علاجه وحسم مادته هو ذلك الداء العضال المخطر داء الأمية...»[14].

ومع دخول الاستعمار، ظهرت الحاجة أكثر إلى إصلاح التعليم وتطوير مناهجه لإيجاد القدرة على التنافس الحضاري للانعتاق من ربقة الاحتلال؛ ولا يكون ذلك إلا بفتح المدارس ونشر التعليم، وتحديث البرامج وطرائق التدريس، وتعليم العلوم الشرعية والرياضية والطبيعية والتقنية، وذلك في تقدير

(12)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: إبراهيم بوحولين، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2021م، ص: 40.

(13)- الفكر السامي، م.س، مج: 2، ص: 226.

(14)- نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: حسن أحمد الحجوي، ملحق بكتابه: العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1757-1912)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2003م، ص: 266.

الحجوي هو الكفيل بإخراج المستعمِر، يقول: «إن الاستقلال لا بد له من رجال قد يمكن إيجادهم بعد عشر سنين، بعد إصلاح التعليم إصلاحا جديا»[15].

ولمّا كانت النهضة هي ثمرة جهود الأفراد لتحسين ظروف حياتهم بحسب منتهى المدنية في وقتهم، فإن ضرورة إصلاح التعليم وترقيته حاجة تدعو إليها الحياة التي هي في تطوّر مستمر، حتى يتم جني تلك الثمرة بالطريقة السهلة الأقلّ كلفة والأكثر جودة، فإن «غيرنا قد اهتدى لاختصار طريق التعليم منذ قرن كامل، فصاروا في الزمن اليسير يحصلون على العلم الكثير، وخصّصوا لدعوة أممهم جرائد ومجلات وكتبا تبحث في كيفية ارتقاء أسلوب التعليم (...) أما نحن فلا زلنا لا نحصّل تعلُّم القراءة والكتابة إلا في مدة طويلة، ولا زلنا ما عرفنا أن الوقت ذهبٌ (...) إذن، تعيّن علينا إذا أردنا النهوض أن نبدأ بالوسيلة قبل المقصود، وهو إصلاح لغتنا وعلومنا، والإصلاح لا يُعرف إلا بمعرفة مواقع الفساد»[16].

- ❖ **مدخل اجتماعي تنموي**؛ لأن التنمية هي نتيجة تنافسٍ مستمر مع الأمم المتقدّمة في الميادين العلمية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية (الفلاحية والصناعية والتجارية والسياحية)، ولا تكون تلك المنافسة -في تقدير الحجوي- إلا بترقية التعليم وتحديثه بما يفضي إلى الاجتهاد والابتكار، وتحصيل أكبر إنتاج محلي، يقول: «فإذا استيقظت [أي الأمّة] من سباتها، وانجلى عنها كابوس الخمول، وتقدّمت في مظاهر حياتها التي أجلُّها العلوم، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كالأمم الأوروبية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدّين مع علماء الدنيا فيظهر المجتهدون»[17]، ولذلك يقترح الحجوي المبادرة إلى جعل التعليم خطة تنموية لتطوير المجتمع، وتحقيق الرقي والازدهار في كافة المجالات؛ إذ «بالعلم ارتقت الفلاحة والصناعة والتجارة، وبه وصلت الدول أوج المعالي. بالعلم ينقلب البر بحرا، والتراب تبرا، والبدوي الجافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموثقا ومفتيا، ومهندسا وطبيبا، ومسيّر معمل، وهؤلاء الذين حازوا غنى الأرض»[18].

---

(15)- أهم الأخبار عن حرب الثار والاستعمار والمذكرات مما له اعتبار، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ح 122، ص: 19.

(16)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، م.س، ص: 42 - 44.

(17)- الفكر السامي، م.س، مج: 2، ص: 518 - 519.

(18)- خطب في التربية والتعليم، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ح 118، ص: 69. وهذا النص مقتبس من خطبة ألقاها على تلاميذ مدرسة أولاد الأعيان بالرباط عام 1342هـ.

اندرج التعليم لدى الحجوي في إطار برنامج مجتمعي متكامل لا يهدف إلى تعليم جنس دون آخر أو فئة دون غيرها، بقدر ما يرمي إلى تعميم التعليم وإلزاميته ودَمقرَطته، وذلك بأن يتساوى «أفراد الأمّة ذكرانا وإناثا في قدر من العلم الأدبي والتهذيب، يزول به سوء التفاهم بين أفراد الأمّة، وهو أقل ما يكفي لأن يصل به الكل إلى معرفة ما يُصلح مجتمعهم أو يضرّ جامعتهم، فيكونوا كجسم واحد يحس بما يؤلم أعضاءه، ويهتدي الدواء الحقيقي فيتطلبه من حيث ينبغي تحصيله»[19]. إن وعي الحجوي العميق برسالة التعليم في تحقيق التنمية «هو ما يؤسِّس فكرة توزيع المعرفة توزيعا عادلا، بحسبانها رأسمالا اجتماعيا تتساوى فيه الحقوق والأنصبة، ويمتنع فيه نظام الامتياز التقليدي الذي كان يجري فيه تفويتها لفئة دون أخرى عملا بقاعدة التمييز -الواعية واللاواعية- بين (العامة) و(الخاصة) ممن يؤول إليها الحق حصرا. وليس من شك في أن هذا التصور الجديد للرأسمال العلمي الرمزي يقلب رأسا على عقب النظام التقليدي لإنتاج النخب الذي ينغلق على عائلات علمية معلومة دون سواها»[20].

- **مدخل أخلاقي وسياسي**؛ إذ تبّنه إلى نوع من الفساد الأخلاقي قد لحق بالزعامات الدينية والسياسية، وبالمسؤولين الإداريين في البلاد آنذاك؛ ولذلك وجّه الشباب «أن يكونوا قادة لأمّة، ويجروها وراءهم تهذيبا وتعليما، لا أن ينفروها منهم. وليكونوا مثال العفة والأخلاق الفاضلة، وأولها صدقة اللهجة، وتقديم المصالح العامة على الخاصة، ونزاهة اليد واللسان، وحسم مادة الباطل، والرِّشَى، وترك الشبهات فضلا عن المحرمات، وكل أمّة هضمت خاصتها حقوق عامتها، كانت غنما مهزولة في ليلة شاتية لا يرجى لمستقبلها حياة...»[21].

لقد ذكر الحجوي في تقييداته أن المغاربة سئموا من كثرة الجور والاستبداد الواقعان على يد كثير من المسؤولين المخزنيين الذين نعتهم بالجهل والاستبداد والظلم والارتشاء، لأن السلطان عبد الحفيظ -في نظره- لم يكن يقرِّب منه ويرقي إلا القليل من أهل العلم؛ «فعندنا كم من عامل يحكم آلافا من الناس ويفصل خصومهم وحقوقهم، وتأتيه الأوامر المهمّة، وهو لا يعرف أن يقرأ ولا أن يحرّر كتابا (...) بل وكم من قاض في البادية لا يعرف أن يقرأ مقالة جريدة ولا ظهيرا شريفا يتعلّق بوظيفه، والحال أنه قاض.

---

(19)- نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية، م.س، ص: 266.

(20)- الخطاب الإصلاحي في المغرب التكوين والمصادر، عبد الإله بلقزيز، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ- 1997م، ص: 127.

(21)- الفكر السامي، م.س، مج: 1، ص: 22 - 23.

فكيف لنا بالتقدّم والنجاح ونحن على هذا الحال، فمن الذي يرقّي الأمّة، أهؤلاء الجاهلون؟! كلّا ثم كلّا...»[22].

ولإعداد القيادة الواعية والمثقفة، المؤمنة بدينها، الخاشية لربّها، فإننا محتاجون إلى مقاربة تربوية وتعليمية تراعي النشء في جميع مقوماتهم، وتنظر إليهم من جميع جوانبهم؛ إذ بالتربية والتعليم يُدرّب المتعلِّم «على قول الحق وشهادة الحق ولو بسخط من غير خوف أو مداراة، ويجب الإصداع بالحق وتخليصه ممن يلبسه بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[23]. ويُدرّب على الأمانة وتجنُّب الخيانة في السر والعلانية، ولو غمزا بعين أو حاجب فيما بين التلاميذ أو مع الوالدين والأستاذ أو غيرهم، فإن الأمّم لا تنجح في رقيّها إلا بتضامن أفرادها عندما يامن ضعيفها شرّ قويها وتتكون بين أفرادها رابطة متينة تحصل منها ثقة كاملة يكون بها كل واحد في عون غيره، بل يعتمد عليه مطمئنا في صون حقوقه (...) قال ﷺ: (ليسَ مِنَّا مَن لَمْ يَأمَن جَارُه بَوائقَهُ)[24] ولا فرق في الجار بين مسلم وغيره، والأمة عائلات متجاورة متعاونة، وكل جمعية كان فرد منها خائنا أو خادعا أو كاذبا كانت ضارة، ومتشتتة خاسرة، ولا تكفي القوانين ردعا للخائنين، بل لا بد من التربية الدينية الصحيحة التي تنشئ ضمائر طاهرة (...) وقال ﷺ: (لا تَظَالَمُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ يَخطِب أَحَدُكُم عَلَى خِطبَة أَخِيه وَلا يَبِعْ على بَيعَتِه)[25]، وقال: (والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لا تُؤمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا)[26]. أخذ الأروبيون بهذا الأصل الإسلامي فارتقوا، وأضعناه فضاع منا كل شيء»[27].

❖ **مدخل نفسي وجداني**؛ فأما إصلاح العلوم إن اقتصر على العلوم العقلية الضرورية فإنه لا يكون مجزيا لتحقيق (الكمال النفساني الوجداني)، ولذلك احتيج إلى الاهتمام بالعلوم اللسانية والأدبية، وبالصنائع الكمالية والفنون الجمالية، مع إيلائها ما تستحق من العناية والتجويد؛ لأنها «باب الأخلاق والتهذيب، وباب الأدب والتأديب، فهي من الضروريات والحاجيات، ومن الكماليات التي يتولّد بإتقانها جمال في

---

(22)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، م.س، ص: 41 - 42.

(23)- البقرة: 42.

(24)- أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، (8/10)، رقم: (6016)، ومسلم بلفظ (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه)، كتاب: الإيمان، باب: بيان تحريم إيذاء الجار، (1/68)، رقم: (46).

(25)- أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه بلفظ: (لا تحَاسَدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض)، كتاب: البر والصلة والصدقة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، (2564)، (32).

(26)- أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه بلفظ: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا...)، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها، (1/74)، رقم: (54).

(27)- أساس التهذيب الإسلامي، م.س، ص: 14 - 16.

النفس والفكر واللسان. فإتقان فني الخطابة والشعر والبيان والفنون الجميلة، من أعظم الأشياء التي تهذّب أنفس الأمم، وتولّد فيها الذوق السليم، وإذا فكّرت الأمّة بفكر سليم اهتدت في الرقي إلى طريق قويم. وهذا لا يكون إلا بإتقان العلوم الأدبية التي من جملتها علومنا العربية»[28].

❖ **مدخل تجديدي-معرفي**؛ فقد أدرك الحجوي أن العصور تبدّلت، والعلوم تقدّمت، والأمم تطورت، والمسلمون -في زمنه- قعيدو علومهم وكتبهم، لا يحفلون بتجديد أفكارهم، ولا بتحيين معارفهم. وأما السلف الأول فقد تمكّنوا من إيجاد أساليب وآليات لاءمت واقعهم، وحققت طموحاتهم؛ فالمسلمون في عصرهم الذهبي -مثلا- كانوا «متمسِّكين بالعلوم العقلية يترجمونها عن الغير، ويبتكرون ما لم يكن لمن قبلهم، وينمون ويمهدون ويهذبون...»[29].

إن التحولات التي عرفتها المجتمعات العربية والإسلامية صارت تستدعي تجديدا في الأفكار والأغراض والأساليب، لكنها للأسف في سبات عميق، غافلة عن تطوّر الزمان وما أحدثه من اكتشافات وصناعات ومواصلات، ومن اتّساع في العمران، وزيادة في الإتقان. «ولقد أدركنا هذا التغيّر في المحسوسات وشاهدناه بأعيننا في زماننا وبلدنا، فلندرك ذلك في المعنويات، وهي طرق التعليم. والتعليم هو من الأشياء القابلة للترقّي دائما، ولا ينحصر في دور من الأدوار، ولا يمكن أن يصدق عليه قول الغزالي: ليس في الإمكان أبدعُ مما كان...»[30].

ومع تعقّد الحياة الاجتماعية في عصره، فقد ظهرت الحاجة إلى تطوير المحتويات المدرسية وتحسينها، بما يناسب حاجات المتعلمين واستعداداتهم، ويراعي قدراتهم ومراتب أفكارهم، ويلامس مشاكل بيئتهم وما يحصل في زمانهم؛ «فإنَّا والله محتاجون إلى تأليف كتب تعليمية مدرسية»[31]، ومراجعتها مراجعة جذرية ومستمرة من حين لآخر، «فلنترك عنا الدراسة بكتب المتأخرين المختصرة، المحذوفة الأدلة المستغلقة، ولنؤلف كتبا دراسية فقهية للتعليم الابتدائي، ثم الثانوي، ثم الانتهائي، كل بحسب ما يناسبه، ولنرب نشأة جديدة تشب على النزاهة والأمانة ومكارم الأخلاق تربية صحيحة دينية كتربية السلف الصالح، ولنمرنها على أخذ الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة، والاشتغال بكتب الأقدمين التي

---

(28)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، م.س، ص: 40 - 41.

(29)- التعاضد المتين، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي- الدار البيضاء، دار ابن حزم- بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2005م، ص: 81.

(30)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، م.س، ص: 44.

(31)- نفسه، ص: 68.

كان يتمرّن بها المجتهدون كـ"الموطأ" و"البخاري" و"الأم" للشافعي، ولنجعل كتبا دراسية لأصول الفقه أيضا على نسق ما بيّنا في كتب الفقه، وهكذا النحو وسائر الفنون العربية...»[32].

ولكي يدفع تهمة الابتداع عن نفسه، يذكِّر الحجوي بسنّة بعض الأولين في إصلاح طرائق التعليم، من الذين كانت لهم نظرات صحيحة في الطرق الموصلة إلى تحقيق الأهداف المنشودة من الدرس، كما يدعو إلى الاقتداء بهم والاستفادة منهم، يقول مثلا: «...وليكن كلام ابن العربي هذا دستورا نافعا، وقانونا عاليا لتفهيم الناشئة العصرية، فما رأيت أحسن منه في كلام المتقدّمين فضلا عن المتأخّرين، والله الموفق»[33].

مع مجيء الحجوي بحرا متفجرا من العلم، وشهابا واريا من الذكاء والتجديد، تحقق تقدُّم ملحوظ على مستوى الاشتغال التربوي، بحثا ونقدا وممارسة، بفضل ثقافته الواسعة والمنفتحة على تراث الإنسانية ومنجزاتها القديمة والحديثة على حد سواء.

المبحث الأول: مجالات اختلاف التعليم بين البنين والبنات عند الحجوي الثعالبي

لا أعني باختلاف التعليم بين البنين والبنات عند الحجوي، ما تؤكده نتائج الدراسات النفسية التربوية الحديثة من وجود تأثير لمتغير الجنس على العملية التعليمية التعلمية؛ من حيث اختلاف الذكر والأنثى في الذكاء الانفعالي مثلا، أو في الدافعية للإنجاز، ومدى الالتزام بالتوجيهات والواجبات، أو في اختلاف اتجاهاتهما الإيجابية نحو تعلم بعض العلوم واللغات، وما إلى ذلك من أوجه الاختلاف الكثيرة والمتعددة[34]، كما لا أعني باختلاف التعليم بين البنين والبنات تحيّز الحجوي لجنس دون آخر، لا سيما وأنه دعا إلى تعميم التعليم على الذكور والإناث في وسط اجتماعي كان وقتئذ ضد تعليم البنات، وعَرَضَ أدلة نقلية وعقلية وتاريخية قوية جدا تؤيّد حقهن في التعليم[35]. وإنما أقصد بذلك بعض خصوصيات النظام التعليمي

---

(32)- الفكر السامي، م.س، مج: 2، ص: 449.

(33)- محاضرة في إصلاح التعليم العربي، م.س، ص: 57.

(34)- للمزيد من الاطلاع والتوسع، يمكن الرجوع مثلا إلى كتاب: سيكولوجية الفروق بين الجنسين، رشاد علي عبد العزيز موسى، تقديم: عبد العزيز القوصى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1419هـ - 1998م. وكتاب: الغرب يتراجع عن التعليم المختلط، بفرلي شو، ترجمة: وجيه حمد عبد الرحمن، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، دون طبعة، دون تاريخ نشر.

(35)- شكلت قضية تعليم المرأة عنوانا بارزا لفترة منغلقة وسط مجتمع محافظ كانت فيه النساء محرومات من حقهن في التمدرس حضريات وبدويات، ولكن الحجوي لم يبال بالوسط المغربي الذي كان وقتئذ ضد القضية، ليتفاعل معها برؤية متنوّرة وبروح مقاصدية صرفة قوبلتا بمعارضة وممانعة شديدتين، مع أنه لا دليل على منع البنات من التعليم وإنما هو التقليد الاجتماعي والعرف الدارج لا أكثر، وبذلك يعد الحجوي أول مدافع عن حق المرأة في التعليم، تدل على ذلك كتاباته في هذا الشأن، وخاصة محاضرته الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات. وكتابه: تعليم الفتيات لا سفور المرأة.

للبنات، والتي أكد عليها الحجوي في مواضع مختلفة من كتاباته، ومن ذلك قوله في بداية الدرس الثلاثين من دروسه التربوية في كتابه الفريد "أساس التهذيب الإسلامي": «إن الدروس السابقة أكثرها مشترك بين الذكور والإناث، ولا يختص بالذكور منها إلا القليل الذي لا يخفى على ذوي النباهة من المدرسين. ونقتصر في هذا الدرس على شيء مما يخص الإناث...»[36].

وبعد استقراء لخصوصيات تعليم البنات عند الحجوي، وجدناها تعود إلى ثلاثة مجالات رئيسة هي: أهداف التعليم، وبرامجه، ومحله. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك الخصوصيات التي ذكرها الحجوي لا تخلو من إشارات علمية، ومعطيات نفسية معتبرة، لا زال علماء النفس التربوي يؤكدونها بإلحاح. ويمكن عرض رؤيته لتلك الخصوصيات ضمن تلك المجالات كما يلي:

المطلب الأول: أهداف التعليم

أثار موضوع تعليم المرأة في عشرينات القرن الماضي، العديد من النقاشات في الأوساط المغربية نخبة وعامة، وكان الحجوي من المؤيدين لتعليم البنات وتهذيبهن بما يصيرهن عضوا نافعا في الهيأة الاجتماعية، إلا أنه لقي معارضة قوية من الفقهاء المتشددين، فلم يجد في نهاية المطاف بدا من اعتناق الرأي القائل بوضع حدود لتعليم المرأة[37]، فاستدرك على جهوده الفكرية بمناصرة تيار الفقهاء الرافض لاقتحام المرأة مجال التعليم[38]، أو على الأقل التعليم الثانوي، وهو ما يتبين من خلال محاضرته "تعليم الفتيات لا سفور المرأة"، والتي ألقاها سنة 1934م.

---

(36)- أساس التهذيب الإسلامي، ص: 70.

(37)- مع أنه لم يكن مقتنعا بذلك، يقول في هذا الشأن: «لم أقف في الكتاب والسنة على دليل يمنع المرأة من العلم، أي علم كان، أو يوقفها عند حد محدود في التعليم العربي الديني، بل الأصوليون صرحوا بأن المرأة يجوز أن تصل إلى رتبة الاجتهاد في علوم القرآن والسنة وما يوصل إليهما من العلوم الإسلامية حتى تكون كمالك والشافعي وأضرابهما، كما كانت عائشة الصديقية التي كان أعلام الصحابة يستفتونها في المهمات، وكانت أعلم أهل زمانها بالشعر والأدب والطب وغيرها». تعليم الفتيات لا سفور المرأة، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تحقيق: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي-الدار البيضاء، دار ابن حزم-بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م، ص: 32- 33.

(38)- مما يدل على ذلك، ما حدث في المؤتمر الذي انعقد بالرباط يوم 9 دجنبر 1922م، حيث ألقى الحجوي محاضرته الرباطية في تعليم الفتاة ومشاركتها في الحياة، وذلك بحضور العديد من الشخصيات المخزنية والعلماء والباحثين، من بينهم الصدر الأعظم محمد المقري، ووزير العدلية الشيخ أبي شعيب الدكالي، وعبد الحي الكتاني، وعبد الأحد الكتاني، ومحمد السائح، فأقدم الصدر الأعظم على إيقاف الحجوي، موجها الكلام إليه: «أنا لا أقول بتعليم البنات لأنه يفتح بابا يعسُر سده، إن الدين الإسلامي لا يساعد على تعليم البنت تعليما يجعلها تشارك الرجل وتزاحمه في الحياة». ثم وجه سؤالا إلى الشيخ أبي شعيب الدكالي قائلا: «فما قولك أيها الأستاذ في الموضوع أيجوز هذا أم لا يجوز؟». وكان جواب الشيخ بالمنع مؤيدا الصدر الأعظم في موقفه. فجلس الحجوي دون أن يتم المحاضرة.

لقد كان الفكر المغربي وقتئذ ضد الفكرة، فرأي الوزير المقري لم يكن شاذا استقل به، بل كان رأي المجموع المغربي يدين به حفاظا على كرامة الجنس اللطيف، وصونا له من مخالطة تعليم قد يرمي به إلى ما لا يتفق وأنوثته الموقرة، إنما الأستاذ الحجوي عاجل الفكرة ناظرا إليها من بعيد، فصدع بها دون مبالاة بالوسط المغربي الذي كان ضدها على طول. من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، عبد الله الجراري،

هكذا ينبغي أن نفهم الحذر الذي أبداه الحجوي في العديد من القضايا المرتبطة بتعليم المرأة، ومنها على وجه الخصوص وضع حدود لتعليمها، بتحديد سن معين يتوقف فيه تعليم البنت في المدرسة، وذلك بالنظر إلى الأهداف التي ترجى من تعليمها، يقول: «يمكن للفتاة أن تحصل على التعليم الابتدائي، قبل أوان الحجاب، إذا أدخلت المدرسة وهي بنت خمس سنين أو ست سنين، فلا تكمل السنة التاسعة من عمرها أو العاشرة إلا وهي مُحَصِّلة لذلك، فعند ذلك يسدل الحجاب وتكمل تعلمها، إن شاءت، داخل البيت؛ إذ لكل نفس حق طبيعي في طلب الكمال وتنمية الملكة الفاضلة إلى أقصى حد ممكن...»[39].

مؤكدا أنه لا يرى الحاجة ملحة لولوج الفتيات إلى مرحلة الدراسة الثانوية والعليا، يقول في هذا الشأن: «لست أرى من حاجة لبنت المغرب الذي يرى الحجاب دينا حقا وشريعة محكمة، يجب حفظها، وعليه مبنى نظام العائلة، أن تدخل مدرسة ثانوية لتحوز إجازة دبلوم أو بكالوريا، أو غيره مما يفعلونه في الشرق، وإني أرى سد الذرائع هنا واجبا. وقلما يطيب عيش رجل اقترن بمن تفوقه علما فتزدريه، ولنقتصر بهن على التعليم الابتدائي الذي يقتصر عليه سواد الأمم الراقية، فضلا عن أمّة مثلنا لا يحصله منها إلا أقل القليل من الذكور. لسنا بحاجة لها أن تكون عدلا، أو قاضيا، أو كاتبا، أو طبيبا، أو مهندسا، أو محاميا، أو مدير مصنع، أو رئيس مكتب وإدارة تجارة...إلخ[40]، مما لم نر إلى الآن هذه الوظائف تمنح للذكور والكثير منهم عاطل، وإن كان أقل القليل، فكيف نهيئ لها المرأة لتزداد لنا مشكلات العاطلات، وذلك إخراج لها عن وظيفها الطبيعي الذي خلقت لأجله...»[41]. وانتقد الدعوات التي تقول بعدم تحديد دراسة المرأة قائلا: «وكل ما يطلب الزيادة في تعليمها إلى درجات عالية فإنما يريد استدراجنا إلى السفور، وإلى إيقاعنا في مشكلات العاطلات وضمهن إلى العاطلين، وإلى طلب وظائف ليست إليها، والرجل عليها أقدر، بل الرجال لم يجدوها بعد...»[42].

فالحجوي إذن، يرى أن مخرجات تعليم البنات ينبغي أن تسهم في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمغرب الحماية بدل تعقيدها، كما ينبغي أن تكون ملبية لتلكم الأهداف التي تناسب وظيفتها

مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 1391هـ - 1971م، ج:1، ص: 68. وأيضا: المحاضرة الرباطية، تحقيق: إبراهيم بوحولين، دار الأمان، الرباط، طبعة: يناير 2021م، ص: 60- 61.

(39)- أساس التهذيب الإسلامي، م.س، ص: 70.

(40)- يقول الحجوي في موضع آخر: «وإن كان ديننا لا يمنع البنات من تلك العلوم، ولكنا لسنا في حاجة إليها، وضررها علينا أكثر من نفعها، على أنا والله في حاجة إلى المرأة التي تعلم البنات وتهذبهن، والطبيبة القابلة المولدة، والممرضة، وطبيبة الأسنان مثلا، لمعالجة النساء أمثالهن، وإن كان ذلك غير موافق للذوق الحاضر». المحاضرة الرباطية، ص: 105.

(41)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 71- 72.

(42)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س،، ص: 72.

الاجتماعية في ذلك الوقت على الأقل، وهي الأهداف التي يمكن تحقيقها في نظره دون حاجة إلى ولوجها التعليم الثانوي، بله العالي. وعلى رأس تلكم الأهداف إعداد بنات مؤمنات يصلحن لإدارة بيوت أزواجهن على أكمل وجه، وفي هذا كتب يقول: «ينبغي لإخواننا المغاربة أن يعتنوا بتربية بناتهم ليظفروا بلبناتهم، ويهيؤوا بنات ذوات تربية منزلية عالية؛ ليتزوجن بمن تعلم من الأبناء. فإن الابن المتخرج لا يستقيم له عيش إلا مع زوجة متخرجة. ولقد رأيت بعض الجزائريين والتونسيين من المتخرجين من المدارس من رغب عن تزوج المسلمات إلى الأوروبيات، فلما بحثتهم عن السبب أجابوا: إنهم لم يجدوا نسوة عربيات مهذبات، فعدم تربية البنات داع إلى بوارهن وبقائهن بدون أزواج مع طول الزمن وتغيّر الأحوال ودخول التعليم بين الأولاد»[43]. ويقول أيضا مؤكدا هذا الهدف المنشود من تعليم البنات عنده: «ومما يتأكد في حقهن، تعليمهن إدارة شؤون البيت وتدبيره، وتربية الأولاد والاقتصاد والحساب، وقواعد الصحة كالنظافة، وشيئا من الصنائع اليدوية، وشيئا من الأدبيات العربية والأخلاق، بقدر ما تكون به البنت مهذبة قادرة على بث روح الأدب واللطف في منزلها وأولادها؛ لأنها هي المدرسة الأولى لأولادها، فمستقبل أولادها متوقف على أن تكون لهم أم ذات تربية إسلامية كاملة»[44].

لعل التأثير الذي تُحدثه الأم في بنيات طفلها النفسية والعقلية والجسمية والسلوكية[45]، هو ما جعل الحجوي يحرص أشد الحرص على القول بوجوب تعليم المرأة تعليما يجعلها أمّا صالحة، قادرة على تحمل أمانة تربية الأبناء، والاهتمام بنشأتهم النشأة الإسلامية الصحيحة، خاصة في مرحلة الطفولة؛ «لأن حياة الإنسان كلها إنما هي نتيجة ذلك الطور القصير طور الطفولية، ومرآة ينطبع فيه كل حين أثر تربيته الأولى والمدرسة الأولى»[46].

إن مرحلة الطفولة، كما يقول الحجوي، هي الحلقة التي تضيع بإهمالها أهم أطوار حياة الرجال، ويتعذّر بسبب ذلك تعليل كثير من أحوالهم[47]. وهذا بالضبط ما يؤكده علم نفس النمو، يقول فايز قنطار

---

(43)- المحاضرة الرباطية، م.س، ص: 104.

(44)- المحاضرة الرباطية، م.س، ص: 105.

(45)- تؤدي الأم عدة وظائف منها: تأدية الموارد الأساسية من أجل إجابة الطفل لمتطلباته الطبيعية وإعطائه الأمان الجسدي، كما تبحث في طبيعة الحاجات الأساسية من الأمان العاطفي الذي يخلق جوا سيكولوجيا مناسبا، إلى جانب وظيفية ذات طبيعة اجتماعية ثقافية تتعلق باكتساب اللغة، والقيم الجماعية، والطباع والعادات التقليدية. صورة الأم عند الطفل المسعف: دراسة عيادية لحالتين، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر، من إعداد: قدور صليحة، بإشراف: زروالي لطيفة، قسم علم النفس والأرطوفونيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، الجزائر، 2014- 2015م، ص: 12.

(46)- الفكر السامي، م.س، ج:1، ص: 12.

(47)- الفكر السامي، م.س، ج:1، ص: 12.

الحاصل على دكتوراه في بيولوجيا السلوك من جامعة بيزانسون بفرنسا: «تأخذ دراسة سلوك الأمومة أهمية خاصة في العملية التربوية؛ لأن التربية في المراحل اللاحقة من حياة الطفل يجب أن تستند إلى الأسس التي وضعتها الأسرة وخصوصا الأم...»[48]. ويضيف أيضا في موضع آخر: «وتشير نتائج البحوث المختلفة إلى أهمية الشعور بالاطمئنان في المراحل المبكرة من حياة الطفل، ليتمكن من الصمود في مواجهة المثبطات والسلبيات في مراحل لاحقة من العمر؛ فالتعامل مع الطفل بإيجابية ومحبة، وباحترام لفرديته، يسهم في تفتح شخصيته، وتنمية قدراته الإبداعية...»[49].

ولهذا الأمر قصد الحجوي في ترجمته أن يلفت الانتباه إلى دور المربية -الأم والجدّة- وما تحدثه من تأثير في مرحلة الطفولة، ليبيّن ما للنساء من أثر عظيم في تربية الناشئة على الاتجاهات الإيجابية، يقول: «إن تأثير هذه التربية الأولى على حياتي هي التي أوضحت لي أن تربية الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين وإعداد الأمم للنهوض. لذلك أرى وجوب تعليمهن وتهذيبهن تعليما يليق بديننا ويزيّن مستقبل أولادنا ويصيرهن عضوا نافعا في هيأتنا الاجتماعية»[50]. ويؤكد ذلك أيضا في سياق حديثه عن وجوب اختيار الزوجة الصالحة، يقول: «فإن أولاده أول ما يفتحون أعينهم على الأم، فلغتها لغتهم ودينها دينهم، ومعتقدها معتقدهم وأخلاقها أخلاقهم وعرضها عرضهم، فهم متأثرون منها بكل شيء وقبل كل شيء غالبا، إذ هي مدرستهم الأولى، وبطابعها ينطبعون أكثر من طابعه، وما أفسدته الأم من أخلاق الولد أو لغته أو دينه يصعب على الأب أو الأستاذ إصلاحه إن لم يكن محالا. وهكذا غالب الناس تكون صحتهم متأثرة من صحة الأم، فالأم إن كانت ضعيفة أو مريضة كان الولد كذلك، وإن كانت صحيحة الجسم قوية البنية كان الولد كذلك، وجبرت ما عسى أن يكون في الأب من ضعف أو علة»[51].

إن قول الحجوي هذا، المتعلق بمرحلة الطفولة الأولى، يحيل لا شك على معطيات نفسية دقيقة؛ إذ تثبت الدراسات السيكولوجية أن تبادلا بين الأم والطفل يحدث منذ الأيام الأولى، ويشترك الطرفان في تفاعل معقد. ويبدو أن التكيف الآلي لسلوك الأم، وكأنه يهدف إلى التقاط إحساسات الصغير وقدراته الاتصالية، كما يعتبر حديث الأم المتزامن مع حركات جسدية خاصة صيغة من التكيف مع القدرات المعرفية والتعلمية والمعلوماتية للطفل، ودعما قويا للتطورات المعرفية الأولية عنده. ويوافق الكثير من

---

(48)- الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم، فايز قنطار، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم: 166، 1992م، ص: 10.

(49)- نفسه، ص: 141.

(50)- الفكر السامي، م.س، ج:1، ص: 12.

(51)- أساس التهذيب الإسلامي، م.س، ص: 69 - 70.

الباحثين على أن الاتصال اللاكلامي (بواسطة الإشارات الجسدية: التقليد، التعابير الوجهية، الابتسام، الكدر، العبوس) يعتبر نقطة انطلاق هامة في تطور الاتصال الكلامي في مراحل لاحقة من العمر[52].

يصدِق ذلك أيضا ما قرّره الفقيه الحجوي في نص طويل عن خطورة مرحلة الطفولة وأهميتها، ومركزية الأم فيها، يقول: «الأم هي أول مدرسة يلقن عنها الولد كل تربية وتهذيب؛ فعن الأم يأخذ الأولاد مخارج الحروف، ومعرفة اللغة، وحسن المنطق، وفصاحة اللسان، واتساع الفكر، وكيفية التفكير (...) إن للتربية البيتية أعظم تأثير على الأولاد، أكثر من المدارس، فأصل صلاح العائلة بصلاح الأم، وفسادها بفسادها، وصلاح العائلة به صلاح الأمّة. فالأم لها تأثير عظيم على فكر الولد بتعليمها وبطباعها وأخلاقها، فمن فم الأم إلى فؤاد الصبي، والتعلم في الصغر كالنقش في الحجر، ففي زمن الطفولية ينطبع فكر الصبي، وطبعه على الصور الجميلة والأخلاق الجميلة، واللغة الجميلة، والحركات الجميلة، أو ضد ذلك. يطيب إن طابت ويخبث إن خبثت.

وفي الصغر يأخذ قضايا مسلمة في البيت تنطبع في قراءة فكره، فلا سبيل إلى محوها، لا سيما إن كان قليل الذكاء، ضعيف التفكير والنقد. ومن فطرة الإنسان التقليد، ومن التقليد يأتيه الخير أو الشر، فإن قلد أبويه في الخير كان ولدا صالحا، والعكس بالعكس، وما قلدهما فيه في الصغر صعب محوه في الكبر، وكل من يشار إليه بفلسفة أو نبوغ في التفكير والنقد تجد عنده من التقليد أضعاف أضعاف ما انتقده، أو اجتهد فيه أو لاحظ عليه، وإن العقيدة إذا تكررت على ذهن الصبي مرة بعد مرة، وقبلها اكتسبها ملكة لا تزول وقلما تغير الأيام منها شيئا...»[53].

إن أهداف تعليم البنات عند الحجوي كانت مرتبطة إلى حد كبير بالمحددات الاجتماعية التي كان يرسمها المجتمع المغربي الذي عرف بتحفظه وانغلاقه، وهي المحددات التي ستظل صامدة زمنا طويلا بعد إعلان الحماية الفرنسية على البلاد. بيد أن دعوة الدين الإسلامي نفسه إلى وجوب تعليم المرأة، كانت سندا قويا في سيره مدافعا عن حقها في التعليم؛ ومن هنا فوجوب تعليم المرأة عند الحجوي نابع من وجوب التزامها بالأحكام الدينية المفروضة على كلا الجنسين دون تمييز، مما يستوجب «أن نربي البنات على تعلم العقائد الدينية، والفقه الضروري، وآداب الدين، وماتيسر من القرآن العظيم. وهذا لايخالف فيه مسلم، لأن

(52)- الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم، م.س، ص: 151- 152.

(53)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 57- 58.

النساء كلهن شقائق الرجال في الأحكام، فتعلمهن ما ذُكر مع وسائله التي توصل إليه واجب بلا شك»[54]، لكن دائما وفق العوائد والأعراف، والذوق السائد الذي كان يحكم المغرب في تلك المرحلة من التاريخ[55].

إن المربين في كل بلدان العالم يسعون إلى تهييئ الأفراد لتكميل ذواتهم من جهة، وخدمة أغراض المجتمع الذي يعيشون فيه من جهة أخرى، حتى يكونوا في انسجام تام مع بيئتهم، محققين للوظائف الاجتماعية المنوطة بهم، وهذا الأمر كان حاضرا في ذهن الفقيه الحجوي وهو يتحدث عن تعليم البنات في المرحلة التي كان يعيش فيها، وإلا فهو مصر على إدماج المرأة في مخطّط التنمية، ولكن بشكل متدرج، وهو ما يظهر في كثير من عباراته من قبيل: «الموافق للذوق الحاضر»، وهذا ما أشار إليه عبد الله الجراري وهو يتحدث عن فكر الحجوي الاستباقي في قضية تعليم المرأة، يقول: «ويبدو أنها لو أخذت طريقها المبكر ساعته لسارت بحدوها إطار الوقار، وتحوطها هالة الحشمة، وكرامة الأنوثة في تدرج لائق، لكنها فرضت نفسها بعد عشرين سنة من إعلانها فاندفعت في فورة ثائرة تتعثر هنا وهناك، وتميع بعض جنباتها ميعة مخجلة»[56].

المطلب الثاني: برامج التعليم

لم يكتف الحجوي بخوض معارك لإثبات حق المرأة في التعليم، وإنما وضع لها برنامجا تعليميا متنوعا هو كفيل بإنماء مختلف عناصر شخصيتها النفسية والعقلية والاجتماعية والمهارية على نحو شمولي ومتكامل. ويمكن حصر برامج التعليم الخاصة بالبنات المغربيات المسلمات، من خلال الحديث عن ثلاثة مجالات تعليمية يراها الحجوي مهمة لتحسين أدائهن الوظيفي في مجتمع تلك الفترة:

أ- تعليم ديني تهذيبي

يؤمن الحجوي بأهمية التعليم في تهذيب خُلق البنت وتقويم سلوكها، ولذلك يجب في حقها أن تُعلَّم «ضروريات الدين من عقائد وعبادات...»[57]، حتى تعبد ربها على بصيرة، ويستعد عقلها لقبول الآراء السليمة، وطرح الخرافات التي تفتك بعقول النساء وتؤثر في المجتمع بأكمله.

وحتى تكون البنت خير ربة لمنزلها، وعضوا صالحا في مجتمعها، فإن ذلك متوقف على تربيتها تربية إسلامية كاملة؛ ولذا يجدر بها أن «تتعلم الأخلاق الإسلامية تعليما وتخلقا حتى تستكمل لطف الشمائل (...) وتنمو فيها العواطف الجميلة التي هي ينبوع الخيرات (...) إلى غير ذلك مما تكون به علوقا مزيزة ذات فضيلة

---

(54)- المحاضرة الرباطية، م.س، ص: 105.

(55)- نفسه.

(56)- التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972، م.س، ص: 140- 141.

(57)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 63.

عالية، ونفس سامية...»[58]. فإن أخلاق المرأة في نظر الحجوي أهم بكثير من جمالها الذاهب، ولذلك «فلتكن عروسة صالحة، وأما رؤوما، لتصلح لسيادة البيت ورياسته (...) لا سيما مع انتشار العلم في الذكور (...) والولد الذي له معارف يميل إلى زوجة تجانسه طبعا ولو نقص جمالها ومالها، طلبا للمناسبة، وقد امتن الله علينا بالزوجة المجانسة لنا فقال: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[59][60]. ويضيف الحجوي مؤكدا على ضرورة تحقق التوافق النفسي والفكري بين الزوجين: «ولا تكمل هذه المودة إلا إذا كانت الزوجة قريبة من رتبة الزوج: علما وأخلاقا وأدبا، ولو في الجملة»[61].

في مقابل ذلك، دعا الحجوي إلى عدم تربية البنت تربية أوروبية، لأنها تربية -في نظره- لا تنسجم مع الواقع المغربي وخصوصياته؛ فمن خلال ما دونه في رحلته إلى أوروبا نستشف الجانب الذي كان يبغضه في النساء الأوروبيات وهو قلة حشمتهن، وخاصة الفرنسيات اللواتي «خلعن ربقة الحياء، وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سِفاد الحيوانات في الطرق جهارا (...) فهذا شيء أفسد الأخلاق، ولا تستحسنه الأذواق، ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع...»[62].

ب- تعليم علمي وفكري:

طالب الحجوي بتعليم البنات تعليما علميا وفكريا بما يجعلها شريكا للرجل في التحصيل، لا لتزاحمه في الوظائف، حيث دعا إلى تعليمهن «مبادئ النحو، والآداب العربية كذلك، تعليما ابتدائيا مع المطالعة، والإملاء والإنشاء المناسب»[63]، إلى جانب «تعلم الحساب كذلك، وعلى الأقل قواعده الأربع؛ بحيث إذا مات زوجها وأصبحت وصية على أولادها، أو تصرفت لنفسها تعرف ضبط ما هي مضطرة إليه: حسابا وكتابا لئلا يذهب مالها ومال المحاجر ضحية الجهل أو الغلط والنسيان. وتتعلم الجغرافية والتاريخ ومبادئ العلوم، ومنها الهندسة العملية، وكل ما له علاقة بالأدب والثقافة تعليما ابتدائيا يصيرها قادرة على التفكير الصحيح»[64]. بينما يكون تعليم الفرنسية اختياريا وليس إلزاميا بطلب من آباء المتعلمات[65].

---

(58)- نفسه، ص: 64- 65.

(59)- الروم: 21.

(60)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 65- 66.

(61)- نفسه، ص: 66.

(62)- الرحلة الأوروبية 1919، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، حقّقها وقدّم لها: سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003م، ص: 74.

(63)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 63

(64)- نفسه.

(65)- نفسه، ص: 61.

لقد ذهب الحجوي بعيدا في مناداته بتعليم البنات تعليما شموليا عصريا، يتجاوز تلك الطرق التقليدية القليلة الجدوى؛ ذلك بأن تربية البنت وتعليمها من وجهة نظره هو «ضروري من حيث الدين والاجتماع معا، وليس هو بكمالي كما يظن بعض من لم يمعن النظر في المسألة تأملا ونقدا، وقد أجمع الرأي العام داخل المغرب وخارجه على أن تربية الأم هي أساس صلاح الأمة أو فسادها، ولا سبيل لأمّة أن تحل المحل اللائق من الرقي إلا بتعليم البنت وتهذيبها، وبقدر تعميم رقي البنت الفكري والأخلاقي ترقى الأمة، وبقدر نقصان ذلك التعميم تنحط الأمة»[66].

ج- تعليم تطبيقي مهني:

ذكر الحجوي أن هذا التعليم لم يكن أمرا مستحدثا في المغرب زمن الحماية، بل كان موجودا قبل دخول المستعمر، حيث كتب يقول: «ولقد أدركنا فاسا، قبل عهد الحماية، وفي جل حوماتها دور لتعليم البنات (...) زيادة على دور أخرى تختص بتعليم الصنائع اليدوية الرقيقة المتنوعة (وكلكم يعلمها) تعليما ممزوجا بأدب المنزل، وكان في كل درب منها عدد ليس بقليل. نقول عن تحقيق: إن جل بنات فاس كن يتعلمن الصنائع...»[67]. كما جاء في محاضرته الرباطية «أن جل الناس كانوا يعلمون بناتهم كثيرا من صنائع اليد؛ كالطراز والخياطة وغير ذلك، ويبعثوهن لمعلمات يعلمنهن كمدارس صناعية، وذلك في الحاضرة والبادية»[68].

وقد انطلق رحمه الله من هذا المعطى التاريخي ليشدّد على مسألة تعليم المرأة ما تستطيع به أن تحسّن تدبير المعيشة، وتسهل الحياة على زوجها؛ ومن ذلك أن «تتعلم تدبير المنزل بمعناه الحقيقي، والاقتصاد والرشد في الأحوال، لتقوم بما عهد إليها أحسن قيام من تدبير مملكتها»[69]. بالإضافة إلى «فن التربية لتحسن تربيتهم به، وتسبك منهم جواهر نفسية تكون حلية في تاج البلاد المغربية»[70]، إلى جانب تأكيده على ضرورة تعليمها «تدبير الصحة والرياضة البدنية، لما في ذلك من حفظ صحتها، وصحة أولادها لتربيتهم جسما وروحا وأدبا»[71].

---

(66)- نفسه، ص: 59.

(67)- تجديد الفقه ونصوص أخرى، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تقديم: سعيد بن سعيد العلوي، مكتبة الاسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م، ص: 147.

(68)- المحاضرة الرباطية، م.س، ص: 153.

(69)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 66.

(70)- نفسه، ص: 67.

(71)- نفسه.

كما شدد على أن تتعلم الفتاة «صنعة أو أكثر، كالخياطة والطرز والفنون الجميلة والطهي وغير ذلك، استعدادا للطوارئ، ولا سيما إذا كانت فقيرة؛ فالصنعة لها ضرورية لتكسب منها قوتها الضروري والحاجي»[72]. ومن هنا لا يرى الحجوي مانعا من اشتغال المرأة ما دام مكسبها حلالا، ولكن طبق الضوابط الشرعية، ووفق ما يتلاءم وطبيعتها النفسية[73]، وكذلك في حدود ما ينسجم مع الذوق الاجتماعي الدارج في ذلك الوقت، لأن الحجوي يؤمن بالتطور التدريجي، وإلا فهو مع أن تمارس المرأة وظائف أوسع مما كان منوطا بها في زمنه، يقول: «على أنا والله في حاجة إلى المرأة التي تعلم البنات وتهذبهن، والطبيبة القابلة المولدة، والممرضة، وطبيبة الأسنان مثلا، لمعالجة النساء أمثالهن، وإن كان ذلك غير موافق للذوق الحاضر...»[74].

المطلب الثالث: محل التعليم

حسم الحجوي في مسألة محل التعليم الذي يصون كرامة الفتيات، ويضمن لهن تحصيلا جيدا؛ حيث رأى أن تعليمهن يجب أن يتم في محل خاص لا يرتاده الذكور، كما نبّه إلى ضرورة اقتصار جنس المدرسين على النساء دون الرجال، شريطة أن تكون المدرسات ذوات أخلاق فاضلة، وكفاءة عالية تمكنهن من تدريس بنات المغرب، يقول: «ويكون تعلمهن على يد نسوة متعلمات فاضلات ماهرات في التعليم، حسنة السلوك مؤتمنات، وفي محلات مخصوصة بالبنات، لا مختلطات بالأولاد»[75]. وأرى أنه لو تحقق هذا الأمر، لما حدّد الحجوي للبنات سنا يتوقفن عنده عن التعليم في المدارس، ولكان في موقع قوة للحث على مواصلتهن التعليم.

لقد اعتبر الحجوي اختلاط الإناث بالذكور في محل تعليمي واحد نافذة للإخلال بمقاصد التعليم النسوي وأهدافه، ونجد ما يؤكد هذا الأمر ضمن الدراسات التربوية المتعلقة بسيكولوجية المتعلم والمتعلمة وميكانيزمات تعلمهما، والتي بناء على نتائجها واستنادا على مخرجاتها، عمدت بعض الدول، بغض النظر

---

(72)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 67- 68.

(73)- يقول الحجوي في هذا الشأن: «فالرجل لقوته البدنية والعقلية اللتين هما بلا شك في الرجل أوفر منه في المرأة، نظرا للأغلب الأكثر، قوام على المرأة، فالرجل لميدان القتال والكر والفر (...) الرجل للفأس والمحراث (...) أما المرأة، فالإسلام اعتبرها منبت الإنسان، فمنها تكون العائلة، وهي قرارة النطفة المكينة المؤتمنة على استيداع أمانتها، وهي بذرة العائلة التي هي بذرة الأمّة، ومربية الأولاد، ومدبرة البيت، وسائسته، ورئيسة العيال، ومصلحة شؤون المنزل (...) فالشريعة قسمت لها الحياة، وخصصت للرجال الأعمال الشاقة العظيمة، وملاقاة الأخطار والدواهي، لما أعطاهم الله من مزيد القوة (...) وخصصت الجنس اللطيف لكل لطيف يستدعي شفقة ورقة: من حفظ النسل وتنميته، والقيام بالشؤون الداخلية التي هيأهن الحق سبحانه لها بحكمته البديعة لغرائز فيهن فطرن عليها حنانا وشفقة، ونجاحا في التربية، ورقة، وعاطفة، وإحساسا على الولد الضعيف الخلقة، وما لهن من الحذق في سياسة التربية والتنمية، والميل مع العواطف، فأعطى لكل واحد من النوعين ما يليق به على مقتضى الحكمة والخلقة والفطرة الثابتة التي لا تتحول، وناموس الكون المشاهد». تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 67- 68.

(74)- المحاضرة الرباطية، م.س، ص: 105.

(75)- نفسه.

عن معتقداتها الدينية، إلى فصل الذكور عن الإناث في التعليم بمدارس خاصة بكل جنس، كما تخلت بعضها كذلك عن التعليم المختلط لما فيه من المفاسد وتضييع للمقاصد، إذ تؤكد -على سبيل المثال- نتائج دراسة أجراها معهد أبحاث علم النفس الاجتماعي في بون «أن تلاميذ وتلميذات المدارس المختلطة لا يتمتعون بقدرات إبداعية، وهم دائما محدودو المواهب قليلو الهوايات. وإنه على العكس من ذلك تبرز محاولات الإبداع واضحة بين تلاميذ مدارس الجنس الواحد؛ فنجد هوايات البنين واضحة في الرسم وكرة القدم، وكذا هوايات البنات في المجال المخصص لهن»[76]. ويمكن تلخيص أهم ما توصل إليه البريطاني التربوي بفرلي شو (Beverly Shaw) في كتابه: "الغرب يتراجع عن التعليم المختلط" للدعوة إلى إيجاد مدارس غير مختلطة فيما يلي:

- يحابي واضعو المناهج الدراسية، ربما دون وعي، أحد الجنسين ولاسيما البنين.
- إن البنين والبنات يحتاجون، نظرا للاختلاف في تطورهم الجسمي والذهني، إلى معاملة مختلفة، والمدارس المختلطة تهمل الفروقات الجنسية بين الجنسين.
- هضم حقوق البنت في ممارسة الأنشطة الرياضية وغيرها، وذلك لعدم توفر ملاعب مستقلة لكلا الجنسين.
- عدم الأخذ بعين الاعتبار لدى وضع المناهج التعليمية الأهداف المستقبلية الحقيقية التي ينشدها كل من الجنسين.
- يحتاج الذكور إلى اهتمام أكبر في الفصل، على الأقل على مستوى ضبطهم؛ إذ يقضي المدرس وقتا طويلا في تهدئتهم، وذلك كله على حساب وقت التلميذة وتحصيلها العلمي.
- المدرسون يتمتعون بنظرة تمييزية وفقا للجنس لدى معاملة تلامذتهم.

لقد شدد الحجوي على ضرورة أن تشرف على تعليم البنات نسوة ماهرات في التعليم، تجنبا للمخاطر المحتملة التي قد تنتجها ظروف مخالطة المدرِّس للمتعلمات، لذلك دعا إلى تكوين المعلمات اللواتي ستناط بهن مهمة التدريس، يقول في هذا الصدد: «يجب علينا أن نهيئ من البنات معلمات مدرسات، يعلمن بناتنا ويهذبنهن تهذيبا عربيا إسلاميا، بالقدر الذي أشرنا إليه، وبيناه إليكم آنفا، وهذا أول ما ينبغي لنا أن نبدأ به في تعليم البنات ويجب تقديمه قبل كل شيء؛ إذ هو الأساس الذي ينبني عليه هذا الصرح العظيم، وطالما

(76)- الغرب يتراجع عن التعليم المختلط، م.س، ص: 8.

ناديت بهذا معلنا أن الإكثار من مدارس البنات قبل وجود مدرسة المعلمات، لا بد أن يلجئنا إلى إدخال المعلمين الذكور لتعليم البنات، وذلك الخطر العظيم، كإيقاد الفرن بمخزن البارود»[77].

وتكوين المعلمات يحتاج لإنشاء مدارس تكوينية تعنى بهذا الشأن، وقد اعتبر الحجوي إنشاءها من أولى الأولويات، «فمدرسة المعلمات أسبق عند كل ذي لب وغيرة ودين، فكما يجب علينا أن نبعد مدارس البنات عن مدارس البنين، وألا يختلطن بهم، كما أمر الله ورسوله، كذلك يجب البداءة بمدرسة المعلمات»[78].

لقد قدم الحجوي تصورا متقدما لتطوير مدارس البنات؛ فبعدما أوردت سلطات الحماية تقريرها عن برامج تعليم البنات المسلمات بالجزائر سنة 1934م، وعرضته على السلطان المغربي، طُلب من الحجوي إبداء رأيه في مدى صلاحية تطبيقها في المدارس المغربية للبنات، وما يمكن إدخاله من تعديلات كي يصبح ذلك البرنامج صالحا[79]، ومن جملة ما اقترحه:

- تعيين معلمة لتعليم القرآن الكريم بعد امتحانها بمحضر بعض طلبة المدينة التي بها المدرسة، ومندوب المعارف أو من ينوب عنه، وذلك -كما يقول الحجوي- حفظا لحق جلالة السلطان لما له من الإشراف على أمور التعليم.
- تعيين معلمة ثانية مسلمة تعلم الدين والقراءة والكتابة والآداب العربية، وإذا لم توجد من فيها الكفاءة، يعين معلم مسلم بعد امتحان أو مناظرة من طرف ذوي الدين والثقة، ويصادق السلطان عليه، لينقطع كلام المعترضين.
- تعليمهن الكتابة والقراءة بإتقان وبطريقة سهلة وفي مدة قصيرة؛ كذلك أمر بتعليم الكتابة بالفرنسية، ولكن ذلك يخص البنت التي طلب وليها ذلك.
- أما الدروس في التربية الأدبية والتربية البدنية التي نص عليها المنشور، فينبغي أن يتولاها معلم فقيه ريثما توجد معلمة مسلمة. ولا ينبغي أن يتولاه إلا المسلمون والمصادق عليهم من الجناب الشريف[80].

---

(77)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 73.

(78)- تعليم الفتيات لا سفور المرأة، م.س، ص: 73.

(79)- الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)، آسية بنعدادة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2003م، ص: 288- 289.

(80)- نفسه، ص: 289.

خاتمة:

إني أرى وقد بلغتُ كلمة الختام هاته، أن أَذكُر أَهمّ الخلاصات والنتائج التي تمّ التوصّل إليها، وذلك على النحو الآتي:

- يعد الحجوي أول مصلح عربي مسلم مدافع عن حق المرأة في التعليم في القرن العشرين.
- الحجوي هو واحد من علماء التربية الكبار، إلى جانب سؤدده في علم الفقه وأصوله.
- لم يكن بحث الحجوي في قضايا الإصلاح التعليمي ترفا معرفيا أو أمرا كماليا، بل كان لأسباب موضوعية معتبرة.
- إن مرحلة الطفولة بالنسبة للحجوي هي أهم مرحلة في حياة الإنسان وأخطرها على الإطلاق، وتلعب الأم دورا مركزيا فيها.
- إن التأثير الذي تُحدثه الأم في بنيات طفلها النفسية والعقلية والجسمية والسلوكية هو ما جعل الحجوي يخوض معارك من أجل الدفاع عن حق المرأة في التعليم.
- إن التعليم المجدي للبنات بالنسبة للحجوي هو الذي يسهم بمخرجات تفيد في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع.
- الأهداف الموجهة لتعليم البنات ينبغي بالضرورة أن تلائم مقوماتهن البيولوجية.
- الأهداف الموجهة لتعليم البنات ينبغي بالضرورة أن تراعي خصائصهن النفسية الأنثوية.
- الأهداف الموجهة لتعليم البنات ينبغي بالضرورة أن تناسب وظيفتهن الاجتماعية.
- نبه الحجوي إلى برنامج تعليمي متكامل لتعليم البنات يلبي جميع حاجاتهن المختلفة في حدود بيئته وزمانه.
- يرى الحجوي أن اختلاط الإناث بالذكور في محل تعليمي واحد هو نافذة للإخلال بمقاصد التعليم النسوي وأهدافه.
- إن البنين والبنات يحتاجون، نظرا للاختلاف في تطورهم الجسمي والذهني، إلى معاملة مختلفة، والمدارس المختلطة تهمل الفروقات الجنسية بين الجنسين.

ومن خلال ما توصّلت إليه من خلاصات ونتائج، فإنني أوصي الجهات المكلفة بإعداد المناهج التعليمية بأن تأخذ بعين الاعتبار الوظائف الاجتماعية للمرأة أثناء التخطيط للأهداف، دون إغفال لما يتناسب مع طبيعتها الأنثوية، إلى جانب الوعي أثناء تنزيل المناهج بمقومات البنات البيولوجية وخصائهن النفسية.

المصادروالمراجع:

- **القرآن الكريم** برواية ورش عن نافع.
- صحيحا البخاري ومسلم.

1. **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث والرابع عشر**، موسوعة أعلام المغرب، لعبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م، الجزء التاسع.
2. **أساس التهذيب الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: الطالب محمد شرنان، بحث لنيل شهادة الماستر في الدراسات الإسلامية، ماستر الاختلاف في العلوم الشرعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، الموسم الجامعي: 2019/2018م.
3. **أهم الأخبار عن حرب الثار والاستعمار والمذكرات مما له اعتبار**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ح 122.
4. **التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972**، عبد الله بن العباس الجراري، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.
5. **تجديد الفقه ونصوص أخرى، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي**، تقديم: سعيد بن سعيد العلوي، مكتبة الاسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م.
6. **التعاضد المتين**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي- الدار البيضاء، دار ابن حزم- بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2005م.
7. **تعليم الفتيات لا سفور المرأة**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تحقيق: محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي-الدار البيضاء، دار ابن حزم-بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.
8. **الخطاب الإصلاحي في المغرب التكوين والمصادر**، عبد الإله بلقزيز، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.

9. خطب في التربية والتعليم، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ح 118.
10. **الرحلة الأوروبية 1919**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، حقّقها وقدّم لها: سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003م.
11. **سيكولوجية الفروق بين الجنسين**، رشاد علي عبد العزيز موسى، تقديم: عبد العزيز القوصى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1419هـ - 1998م.
12. **صورة الأم عند الطفل المسعف: دراسة عيادية لحالتين**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر، من إعداد: قدور صليحة، بإشراف: زروالي لطيفة، قسم علم النفس والأرطوفونيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، الجزائر، 2014- 2015م.
13. **الغرب يتراجع عن التعليم المختلط**، بفرلي شو، ترجمة: وجيه حمد عبد الرحمن، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، دون طبعة، دون تاريخ نشر.
14. **الفكر الإصلاحي في عهد الحماية** (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)، آسية بنعدادة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2003م.
15. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1428هـ - 2007م، في جزءين.
16. **المحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية**، تحقيق: إبراهيم بوحولين، دار الأمان، الرباط، طبعة: يناير 2021م.
17. **محاضرة في إصلاح التعليم العربي**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: إبراهيم بوحولين، دار الأمان، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2021م.
18. **من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا**، عبد الله الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 1391هـ - 1971م.
19. **نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية**، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، تح: حسن أحمد الحجوي، ملحق بكتابه: العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1757 - 1912)، حسن أحمد الحجوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2003م.